فقد ثبت أن وجود الممكن من غيره حال إيجاده لا يكون موجودا لاستحالة إيجاد الموجود لأنه تحصيل للحاصل .

فيكون معدوما ضرورة . فوجود الممكن إذن مسبوق بعدمه . وهو معنى الحدوث .

وإذا كان العدم لايحتاج إلى زمان على رأى الفلاسفة . فهو زعم باطل ؛ لأن الحادث بهذا المعنى لايحتاج إلى القادر المختار . وإنما هو أثر للعلة الموجبة التى لا ينفك أثرها عنها .

يقول الدكتور غلاب : ويمكن أن يعترض على مبدأ الأزلية بأنه يتعارض مع مبدأ الخلق(١) » .

وهو كذلك ؛ لأن إرادة الواجب إنما تتوجه إلى المعدوم لإيجاده ، والقصد أو الإرادة إنما تكون فى الآن الثانى دون الأول . فالعلة إنما تقصد إلى معلولها وتفيد وجوده بعد أن تحوز وجود ذاتها ليتحقق منها للمعلول إفادة الوجود . أما إذا كان معها فى الوجود فلا تتحقق إفادة ولا استفاده .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده : وعلى فرض القول بالعلة ، فالعلة إنما تفيد وجود المعلول بعد أن تحوز وجود ذاتها وكون المعلول معها فى آن واحد يستلزم أن تكون العلة والمعلول كل منهما قد حاز وجوده مع الآخر فلاتتحقق الإفادة والاستفادة(٢) » .

ويقول الأستاذ العقاد : والحق أن كل ماقيل عن القدم خلف ليس له طائل(٣) .

---

(١) مشكلة الألوهية : ٨٧ .
(٢) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ١٧٨-٩ .
(٣) الفلسفة القرآنية : ٩٣ .

ولعل القول بالقدم هو الذى منع أرسطو من القول بنظرية الخلق لأنه لا يتفق مع القول بالقدم .

أما أن يقول فلاسفة الإسلام بهما معا فهو قول لا تسيغه العقول .

ولو أن الفلاسفة اكتفوا بالقول بقدم العالم فقط لهان الخطب ، ولكنهم مع ذلك يسلبون البارى سبحانه إرادته واختياره . لأن ذلك يؤدى — فى زعمهم — إلى نقصان الواجب تعالى . فيكون ناقصا بذاته مستكملا بغيره وهو محال .

ولست أدرى أى ذلك هو النقصان ؟

أن يكون البارى سبحانه ذا إرادة وإختيار يفعل ما يشاء ويختار — أو أن تكون لنا الخيرة دونه — فيكون إلها جامداً مسلوب الاختيار والإرادة ؟!!

إن إرادة الواجب واختياره — على غير ما ذهب إليه الفلاسفة — لا يمكن أن يؤدى إلى استكمال الواجب بغيره بل فيه استكمال الغير وكمال الواجب ، وفيه استكمال الفعل وكمال الفاعل .

وعلى أساس نظرية الخلق ، وكمال الواجب لأنه فاعل مختار يتم لنا الدليل على « أن كل ممكن حادث » .

وليست بنا حاجة إلى ما ذهب إلى المتكلمون من إثبات حدوث العالم عن طريق حدوث الأعراض والأجرام .

وهذا الدليل فى نظرنا من أقوى الأدلة على حدوث العالم ، وهو دليل عام يجرى فى الزمان والمكان والحركة والمادة ، والمجردات جميعا . فليس دون الواجب إلا الممكن .

ومن ثم فالعالم حادث غير قـديم ، وهو حادث بالشخص ، وحادث بالنوع جميعا .

وما يتذرع به الفلاسفة من استحالة صدور حادث من قديم . وإلا لزم تخلف المعلول عن علته التامة . كما أن الله متقدم على العالم : فإن كان بالذات فهما قديمان ، وإن كان بالزمان والزمان منه لزم تقدم الزمان على نفسه بالوجود .

فنقول لهم : إن العلة التامة إنما تتم بإرادة الواجب خلق العالم فى الوقت الذى أراده فيه . والزمان من جملة العالم وتقدم البارى عليه لا بزمان ووقت لأن الزمان منعدم فيما بين الله والعالم فلا يلزم تقدم الزمان على نفسه .

ويمكن أن نرجع بمسألة الحدوث إلى نصوص الوحى نستق منها الدليل . والقرآن الكريم والسنة المطهرة فيهما الأدلة المتوافرة على الحدوث وليس بصحيح مازعمه ابن رشد من أنه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ولا يوجد هذا فيه نصا أبداً .. وأن الوجود والزمان مستمر من الطرفين غير منقطع .

وإلا فماذا تفيده الآيات الدالة على قـــدم البارى سبحانه وحدوث ما عداه كقوله سبحانه ( هو الأول والآخر(١) ) أى الأول قبل كل شيء بغير بداية ، والآخر بعد كل شيء بغير نهاية .

وقوله سبحانه ( لله الأمر من قبل ومن بعد )(٢) أى من قبل الخلق ومن بعد الموت .

وإذا كان الله قديما : وهو محل اتفاق بين جميع العقلاء ، وهو الخالق

---

(١) الحديد : ٣ .  (٢) الروم : ٤ .

لكل شيء كما قال سبحانه ( وخلق كل شيء فقدره تقديرا )(١) ( إنا كل شيء خلقناه بقدر )(٢) ( الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل )(٣) (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه)(٤) . فإن لهذا الخلق بداية كما قال سبحانه : ( وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده )(٥) ( الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون )(٦) ( أو لم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده )(٧) ( أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض )(٨) ( قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون )(٩) .

ويقول الرسول ﷺ « ليس نفس مخلوقة إلا الله خالقها »(١٠) .

وإذا كان الله قديما والعالم له بداية فقد كان الله ولاشيء غيره ، أو ولا شيء معه كما جاء بذلك الحديث الشريف .

وأما ماورد من رواية التوحيد « كان الله ولم يكن شيء قبله » فقد علق عليها الإمام ابن حجر بأن رواية الباب « كان الله ولم يكن شيء غيره » تؤيدها رواية غير البخارى « كان الله ولم يكن شيء معه » وفى رواية أبى معاوية « كان الله قبل كل شيء » والقصة متحدة فاقتضى ذلك أن تكون رواية « التوحيد » قد وقعت بالمعنى.. وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ، ولا العرش ، ولا غيرهما(١١) .

---

(١) الفرقان : ٢ .
(٢) القمر : ٤٩ .
(٣) الزمر : ٦٢ .
(٤) الأنعام : ١٠٢ .
(٥) الروم : ٢٧ .
(٦) الروم : ١١ .
(٧) العنكبوت : ١٩ .
(٨) النمل : ٦٤ .
(٩) يونس : ٣٤ .
(١٠) انظر فتح البارى ٣٩١/١٣
(١١) فتح البارى ٢٨٩/٦ ، ٤١٠/١٣

وقد اتفقت الرسل جميعاً ، وتواترت نصوص الكتب المنزلة عليهم على هذا المعنى ، ولا يتوقف صحة الوحي عليه . لأنه من الممكن إثبات وجود الله عن غير طريق الحدوث كطريق الإمكان أو النظام أو العناية أو غيرها ، ثم يثبت صدق الرسول بالمعجزة ، ومن الرسول نعلم حدوث العالم . وهذا هو مذهب بعض المتكلمين(١) .

وما ذكره ابن رشد أيضاً كدليل على إمتداد الوجود والزمان في الأزل والأبد من مثل قوله تعالى . ( وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء )(٢) . وقوله سبحانه : ( ثم استوى إلى السماء وهى دخان ) وقوله جل ذكره : ( يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات )(٣) . لا يشهد له شيء من ذلك على قدم العالم مطلقا : فخلق السموات والأرض متأخر عن العرش والماء والقلم واللوح وغيره ، فهناك وجود قبل وجودهما هو العرش والماء . لكن أى دليل فى هذه الآية أو فى غيرها يدل على قدم العرش والماء ؟ وهناك زمان مقترن بهذا الوجود لكنه غير قديم . كما أن هذا الوجود كذلك غير قديم ، وقد خلقت السموات والأرض من شيء . لكن ما الدليل على قدم هـــذا الشيء ( دخان كان أو غيره ) ؟

كذلك ليس بصحيح ما يزعمه ابن رشد أيضا من أن الزمان عرض يعسر تصور حدوثه ، لأن الزمان مقدار حركة هذا العالم ، وحيث قد ثبت حدوث العالم ، فقبل العالم لا زمان ، بل هو حادث حدوث العالم لأنه من جملته .

---

(١) أنظر المواقف والتهافت ٩٥ حاشية

(٢) الحديد : ٤ (٣) إبراهيم ٤٨

العلم الحديث :

وبعيداً عن أغلاط الفلاسفة ، والجدل العقيم الذى لا يغنى من الحق شيئاً نستمع إلى الحقائق العلمية وما يقوله العلم الحديث عن هذه المعضلة التى أشكلت على القدماء . وتذرع بها بعض المحدثين من أجل إنكار وجود الله .

لقد أثبت علماء الفلك ، وطبقات الأرض وغيرهم أن العالم حادث وجد بعد أن لم يكن ، ومع أن الإسلام لم يذكر لنا متى وجد . إلا أن العلماء اليوم أصبحوا يحددون لنا عمر هذه الكائنات وزمن هذه المخلوقات تحديداً علمياً دقيقاً .

يقول «جورج جاميو» فى كتابه تاريخ الأرض : إن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة . أما الأرض فقد نشأت حديثا جداً إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين فقط ، وظهرت الحياة على الأرض منذ بليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ ٢٠٠ مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التى يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها على الأرض منذ ١٢٠ مليون سنة ، والإنسان هو أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ ٥٠ مليون سنة»(١) .

وتجاوزا لهذا التحديد . فهناك قانون « الطاقة المتاحة الذى اكتشفه ( كارنو ) واستنتج منه ( لكوزيوس ) و( لورد كيلفن ) : أن تطور العالم يتم باتجاه واحد وليس له سوى نهاية ممكنة (الموت الحرارى) .

وهذا القانون يثبت أن الحرارة تنتقل دائما من « وجود حرارى » إلى «عدم حرارى» والعكس غير ممكن .

---

(١) أنظر العقائد الإسلامية ٥٥

وبناء عليه فإن عدم كفاءة عمل الكون يزداد يوماً بعد يوم ولابد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات . وعندئذ تنفد الطاقة المفيدة للحياة والأحياء وتنتهى الحياة .

وبما أن الحياة لاتزال قائمة ، والطاقة موجودة فهذا يعنى أن الكون قد بدأ منذ وقت لا يسمح بنفاد هذه الطاقة الموجودة فيه وهذا يعنى حدوثه ، إذ لو كان قديما لنفدت هذه الطاقة من زمن طويل »(١) .

ويقول الدكتور : «أدوارد لوثر كسيل» :

فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا(٢).

ويقول الدكتور : « بيتر واستوفر » .

كنت أعتقد أن المادة أزلية أبدية ، وإن كنا نستطيع أن نغير شكل المادة . إلا أن الحالة الثانية أيضا مادة ، وهكذا كانت عقيدة الكثير من العلماء . فما إن ا كتشفت الطاقة الذرية حتى تبين أن المادة يمكن أن تبدل إلى طاقة ، والطاقة إلى مادة . لذلك أصبحت فرضية الخلقة وحدوث العالم من الضروريات الواضحة العلمية »(٣) لأن التحول لا يجوز على الأزلى .

ويقول الدكتور : «إرفنج وليام نوبلوتشى» :

فعلم الفلك مثلا يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة ، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد أن هذا الكون أزلى له

---

(١) أنظر الإسلام يتحدى .. لوحيد الدين خان

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ٢٦ جون كلوفر

(٣) راجع محاضرات فى العقيدة ٢٠٢ أحمد البهادلى

بداية ، أو أبدى ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغير »(١) . وهكذا يثبت العلم الحديث حدوث العالم وعدم أزلية المادة كما يزعم ابن رشد وغيره من الفلاسفة .

٣ — أول المخلوقات :

تبين لنا مما سبق أن العالم — وهو كل ما سوى الله — حادث مسبوق بعدمه ، وأن الله وحده هو الأزلى لا أول لوجوده . وهذا المعنى هو ما يدل عليه صراحة قول النبي ﷺ : « كان الله ، ولم يكن شيء غيره » ، وكان هنا لا بمعنى المضى فقط . ولكنها تفيد معنى الدوام والاستمرار كذلك .

وإذا كان العالم حادثا : وجد بعد أن لم يكن . فما هو أول هذه الموجودات من الحادثات ؟ إلى ذلك يشير الحديث الشريف بقوله ﷺ : « وكان عرشه على الماء » والذى ينساق إليه الفهم فى هذه العبارة : أن العالم ينقسم إلى قسمين : علوى وسفلى . وأن أول المخلوقات السفلية هو :(الماء) . وأن أول المخلوقات العلوية هو : ( العرش ) وذلك بمقتضى قوله « وكان عرشه على الماء » . فإن معناه أن أول المخلوقات : (عرش على ماء) . وليس يعنى هذا أن العرش ملاصق للماء محمول عليه . وإنما يعنى أن العرش فى جهة العلو ، وأن الماء تحته فى جهة السفل .

وذلك مثل قولنا : « السماء على الأرض » أى فوقها دون مماسة أو ملاصقة لها .

ولكن : إذا كان الماء والعرش مخلوقين . فلماذا عبر الحديث عنهما بلفظ ( كان) ولم يقل (خلق) فقال : « وكان عرشه على الماء » كما قال « كان

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ٥٣

الله ولم يكن شيء غيره » . ثم عبر مع السماوات والأرض بلفظ ( خلق ) فقال : « وخلق السماوات والأرض » . فلو كان العرش والماء مخلوقين لعبر معهما بلفظ ( خلق ) فقال « وخلق عرشه على المـــاء » كما قال « وخلق السماوات والأرض » .

وأقول : لعل ذلك مما يشهد لنا على أن الماء والعرش هما أول المخلوقات لأنه لو عبر بلفظ (خلق) بدل (كان) مع العرش والماء ربما اختلط الأمر على الناس فلا يدرون أيهما خلق أولا «العرش والماء» أو «السماوات والأرض» لأن العطف بالواو لا يقتضى ترتيبا ولا تعقيبا .

ثم إن التعبير بلفظ ( كان ) مع الله . وبلفظ ( كان ) أيضا مع العرش والماء لا يقتضى قدم العرش والماء . وأنهما غير مخلوقين . لأن ذلك منفى بقوله « ولم يكن شيء غيره » فنفت المعية .

وعلى ذلك فهناك مقابلة بين ( كان ) الأولى فى قوله « كان الله ولم يكن شيء غيره » و (كان) الثانية فى قوله : « وكان عرشه على الماء »(١) فهى فى الأول بمعنى الدوام فى الأزل والأبد . وفى الثانى بمعنى الحدوث فى جانب الماضى . واستعمالها فى المعنيين مشهور . وهذا ظاهر . إذ لا يتصور من كان عنده مسكة من عقل أن (كان) الثانية مثل (كان) الأولى فى الأزلية : لما فى ذلك من التناقض الظاهر فى نص الحديث ؛ لأنه قد نفى صراحة أن يكون مع الله شيء ما بقوله « ولم يكن شيء غيره » فلا يعقل بعد ذلك أن يقال : وكان معه فى الأزل العرش والماء .

---

(١) قال الطيبى : هو فصل مستقل . لأن القديم من لم يسبقه شيء ولم يعارضه فى الأولية . لكن أشار بقوله (وكان عرشه على الماء» إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقا قبل السماوات والأرض — فتح البارى ٦/٢٨٩

ولكن إذا كان العرش والماء هما أول المخلوقات ، فأيهما خلق أولا : العرش أو الماء ؟ .

أقول : إنه لا نص في الحديث على ذلك .

وإنما قد يؤخذ من ظاهر الحديث أن الماء خلق أولا كما يفيده ظاهر اللفظ في قوله : « وكان عرشه على الماء » .

وقد ورد ذلك نصاً في أحاديث أخرى بأسانيد مختلفة منها ما ورد عند أحمد والترمذي بسند صحيح مرفوع : على أن الماء خلق أولا(١) .

وعلى هذا يمكننا القول : بأن أول المخلوقات المادية على الإطلاق هو ( الماء ) .

وأن العرش هو أول المخلوقات المادية العلوية ، خلق بعد الماء .

أما أن العرش هو فلك الأفلاك كما يقول الحكماء فليس لدينا ما يؤكد ذلك أو ينفيه .

وأما كون (الماء) هو أصل الموجودات كلها كما قال «طاليس الملطي» وغيره من الفلاسفة فلم نجد عليه دليلا صحيحاً صريحاً في الإسلام اللهم إلا ما تفرد به أحمد من حديث يزيد عن همام عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة قال : قلت يارسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء . قال : «كل شيء خلق من ماء» ، قال ابن كثير : وهذا إسناد على الصحيحين ، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم ، والترمذي يصحح له ، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلا(٢) .

---

(١) أنظر العقائد الإسلامية : ٥٤ الشيخ سيد سابق .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٧٧:٣ .

وأما قوله تعالى : ( وجعلنا من الماء كل شيء حي )[١] ، وقوله :( والله خلق كل دابة من ماء )[٢] فلا يفيـد أنه أصل كل المخلوقات بل الأحياء منها فقط .

وقد نقل صاحب « الملل والنحل » ونقله عنه صاحب « المواقف » عن « طاليس الملطى » أن أول المخلوقات هو « الماء » ومنه خلق كل شيء : من السماء والأرض وما بينهما .

يقول « الشهرستانى » وفى التوراة فى السفر الأول منها أن مبدأ الخلق هو جوهر خلقة الله تعالى ثم نظر إليه نظرة الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السماوات وظهر على وجه الما زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ، ثم أرساها بالجبال ، ثم يقول الشهر ستانى وكان طاليس الملطى إنما تلق مذهبـه من هـــذه المشكاة النبوية[٣] .

ولكننا لم نعثر على هذا النص فى سفر التكوين فى التوراة التى بين أيدينا ، ولا ندرى ما إذا كان ذلك فى التوراة القديمة قبل أن تحرق ؟ ومن ثم لا يمكن لنا التعويل عليه .

نعم قد ورد ذلك عن كعب الأحبار كما نقله الرازى ولكنه مما لا يعتد به فى حكم الإسلام .

وعلى ذلك فالذى نفيده هنا : هو أن أول المخلوقات المادية هو « الماء » كما أن أول المخلوقات العلوية هو «العرش» وقد خلق بعد الماء، وقد روى

---

(١) الأنبياء ٣٠ (٢) النور ٤٥

(٣) الملل والنحل : ٢:٦٨ تحقيق د/بدران .

« السدى » فى تفسيره بأسانيد متعددة « أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل المـــاء »(١) .

وأما ماورد مما يوهم ظاهره معارضة هذا الحديث الذى معنا فنه ماورد فى الحديث الصحيح عند أحمد والترمذى عن عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال : « أول ماخلق الله القلم ، ثم قال له أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » ومنه ماورد من أن أول المخلوقات هو « العقل » .

ومنه ما ورد فى المواهب اللدنية من أن أول المخلوقات هو « نور نبينا» ﷺ « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » الحديث المشهور .

وهذه الأحاديث منها مالم يثبت صحته كحديث « العقل » وحديث « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » ومنها ما ثبت صحته كحديث أحمد والترمذى : « أول ما خلق الله القلم » .

وعلى فرض صحة ما لم يثبت صحته من هذه الأحاديث ، فلا يفيد شىء منها التعارض مع هذا الحديث الذى معنا بل يحمل كل منها على أنه « أول » فى بابه : فالماء أول الموجودات المادية السفلية ، والعرش وإن كان بعد الماء بنص الحديث الصحيح — كما سبق — هو أول الأجرام العلوية ، والقلم والعقل هو أول المخلوقات المعنوية(٢) ، والنور هو أول الأنوار النبوية ، وهكذا يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بعد ذلك : « وكتب فى الذكر كل شىء » و « الذكر » قد ورد تفسيره « باللوح المحفوظ » .

---

(١) فتح البارى : ٦ : ٢٨٩

(٢) ووقع فى قصة نافع بلفظ : كان عرشه على الماء ، ثم خلق القلم فقال اكتب ماهو كائن ، ثم خلق السماوات والأرض وما فيهن ، فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش ، فتح البارى : ٦ : ٢٨٩

وهو جسم عظيم خلقه الله تعالى ليسجل فيه كل شيء حتى يطلع عليه من شاء من ملئه الأعلى وملائكته المكرمين ، وهذا المعنى هو ما يؤيده ظاهر النصوص الصحيحة الواردة فى صفته ومعناه .

ويرى البعض أنه عبارة عن علم الله المحيط الذى يتعلق بسائر الموجودات : كليها وجزئيها صغيرها وكبيرها ، ما كان منها وما يكون.

والبعض يرى أنه ما يلوح للملائكة ليعلموه ، ويفهموا عنه .

وأرى أنه لا ملجىء لنا إلى تأويل ظاهر النصوص والخروج بها عن معناها الحقيق إلى المعنى المجازى مادام ذلك لا يصدم أصلا من أصول الإسلام والخروج عن الظاهر بدون ضرورة ملجئة غير جائز .

نعم قد نلجأ إلى تأويل معنى « القلم » بأنه قوة معنوية مجردة عن المادة هذا إذا كان الكاتب هو الله تعالى مباشرة « بمقتضى قوله ﷺ « وكتب فى الذكر كل شيء » والكتابة بالقلم كما ورد فى حديث أحمد ( لأن الله ليس كمثله شيء ) وإن كان الكاتب هو القلم المباشر للكتابة ، والله هو الكاتب بمعنى الآمر له بأن يكتب فلا مانع من إرادة المعنى الحقيق للقلم ، دون الخروج إلى المجاز .

وظاهر من معنى الحديث : أن اللوح والقلم مخلوقان بعد الماء والعرش .

وأرى أنه لا معنى لإنكار المجردات على أنها مخلوقة لا خالقة كما يقول بعض فلاسفة الإسلام كابن سينا والفرابى ومن تبعهما ممن يقولون بنظرية الصدور .

* * *

بعد ذلك يقول الرسول ﷺ :

« وخلق السموات والأرض » .

ويعني ذلك أن خلق السموات والأرض إنما جاء متأخراً عن خلق الماء والعرش والقلم ، وإن كان العطف بالواو لا يفيد هذا الترتيب إلا أنه قد وقع في قصة نافع بن زيد : « وكان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال: اكتب ماهو كائن ، ثم خلق السموات والأرض وما فيهن » فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش ، وفي رواية التوحيد : « ثم خلق السموات والأرض » ، ويؤيد رواية نافع ماورد عند مسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً:«إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض . . وكان عرشه على الماء »(١) .

ولكن أيهما أسبق خلقاً : السماء أو الأرض ؟ .

الرواية التي معنا لم تذكر لنا شيئاً من ذلك ، ولكن من الممكن لنا أن نجد ذلك واضحاً في قوله تعالى:«قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين،ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم »(٢) .

فقد ذكرت الآية أن خلق الأرض كان أولا ، كما قال سبحانه ( هو

(١) راجع فتح الباري : ٦/٢٨٩ ، ١٣/٤٠٣ وما بعدها .

(٢) فصلت : ٩ — ١٢

الذي خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات )(١) .

أما قوله تعالى : ( أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ) فتعنى أن دحو الأرض لا خلقها هو الذي كان بعد خلق السماء .

والدحو قد فسره قوله تعالى بعد ذلك ( أخرج منها ماءها ومرعاها ) ، هكذا فسرها ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه(٢) .

والذى يلفت النظر فى هذه الآية ( ثم استوى إلى السماء وهى دخان ) أن السماء قد خلقت من مادة — كما قال ابن رشد ، ولكن ذلك لا يعنى أن هذه المادة قديمة ، وليس له من دليل على ذلك — فما هى هذه المادة ، أو ما هو هذا الدخان ؟ وهـــل هو أصل السماء فقط ، أو أصل السماء والأرض ؟ .

يجيب العلم الحديث — حيث لم ترد النصوص القرآنية والنبوية ما يبين لنا حقيقة هذا الدخان — « أن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأول فى العلم الحديث وبين الدخان . . للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التى تكون منها الكون فى هذه المرحلة الأولى » . . « فالكون قد تشكل من كتلة غازية تتكون رئيسياً من غاز الهيدروجين ، وثانوياً من غاز الهليوم بطىء الدورة ، وقد أنقسم هذا السديم بعد ذلك إلى أجزاء متعددة ذات أبعاد وكتل ( عظيمة ) » « إن عملية تشكل الكون الأساسية من تكاثف ( هـــذا ) السديم ثم من انفصاله إلى أجزاء كونت فى الأصل

---

(١ ، ٢) راجع تفسير ابن كثير : ٤/٩٢ ، ٩٣

كتلا مجرتية بدورها تجزأت هـــذه الأخيرة إلى نجوم (ومنها كانت الكواكب) . . (ومن البواقي كانت المادة المنتشرة بين النجوم»(١)، والأرض داخلة ضمن هذه المجرات التي كونتها هذه الكتل الغازية .

وهذا هو ما يفسره أو يفسر به قول الحق سبحانه : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)(٢) .

وكانتا رتقا أي كان الجميع متصلا بعضه ببعض، متلاصقاً متراكما بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه من هـــذه فجعل السموات سبعاً ، والأرض سبعاً ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض»(٣) .

وعلى ذلك فالمادة الأولى (السديم أو الدخان على حسب تعبير العلم أو القرآن) قد خلقها الحق سبحانه ومنها خلق السماوات والأرض (ومابينهن) ومابينهن هنا كما يقول العلم الحديث هو المادة المنتشرة بين النجوم «توصف على أنها سدم مظلمة، أو مادة كونية منتشرة تتميز بأنها شديدة الخفاء، وهي كتل عظيمة تفوق مجموع كتـــل المجرات ، وهي التي تعوق المقاييس الفوتومترية عند علماء الفلك»(٤) .

ثم كان من الماء كل شيء حي كما صرحت بذلك الآية الكريمة، وتعني الآية أن الماء مصدر كل شيء حي كمادة جوهرية له.

يقول «بوكاي» . وهذا مما يتفق تماماً مع العلم: فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية»(٥).

---

(١) راجع: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ١٦٨-١٧٢ موريس بوكاي
(٢) الأنبياء ٣٠ (٣) راجع تفسير ابن كثير ٣/١٧٦ ، ١٧٧
(٤) راجع : بوكاي ١٧٠ (٥) راجع : بوكاي : ٢١٢ ، ٢١٣

يقول ابن حجر بعد ذلك معلقاً على الحديث : وفيه جواز السؤال عن مبدأ الأشياء ، والبحث عن ذلك ، وجواز جواب العالم بما يستحضره من ذلك ، وعليه الكف إن خشي على السائل ما يدخل على معتقده . وفيه أن جنس الزمان ونوعه حادث ، وأن الله أوجد هذه المخلوقات بعد أن لم تكن لا عن عجز عن ذلك بل مع القدرة »(١) .

وفيه كذلك كراهية تعليق آمال المؤمن بعاجل هذه الدنيا الفانية دون الآخرة الباقية . دل على ذلك قول بني تميم لرسول الله ﷺ وقد قال لهم : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، أي اقبلوا ما يقتضي عمله واعتقاده البشرى لكم في الآخرة كالتفقه في الدين والعمل به . « قالوا بشرتنا فأعطنا ، ذكرت بعض روايات الحديث أنه « تغير وجهه ، أورؤى في وجهه . أي أغضبه ذلك ، أسفاً عليهم لأنهم آثروا الفانية على الباقية .

وفيه حرص الصحابة على ارتياد مجالس العلم ، وملازمتهم لرسول الله ﷺ ليتعلموا العلم ويتفقهوا في الدين . وقد كان ذلك أحب إليهم من الدنيا وما فيها ، يشهد لذلك قول عمران وقد جاءه من يخبره بشرود ناقته فقام إليها فإذا هي يقطع دونها السراب(٢) . أي يحول بينه وبين رؤيتها . يقول عمران : فوالله لوددت أني كنت تركتها . أي ولم أقم قبل أن يكمل الرسول حديثه .

وهكذا : يعلمنا رسول الله ﷺ العقيدة الصحيحة كما علمه الله إياها ليتعرف الناس على حقيقة هذا الإله بعيداً عن جدل المتكلمين وأغلاط الفلاسفة ، وإلحاد الزنادقة ، (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأني تصرفون )(٣) .

---

(١) فتح الباري : ٦/ ٢٩٠

(٢) والسراب : هو ما يرى نهاراً بالصحراء كأنه ماء وهو ليس كذلك

(٣) يونس : ٣٢